

مقصوده أن تكون حركات الإنسان وسكناته وعباداته الظاهرة والباطنة لله وحده

الإخلاص.. حقيقة الدين ومفتاح دعوة المرسلين وشرط قبول الأعمال الصالحة



قال الله تعالى: «وما أمر إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة» وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه، قيل: وما إتقانه يا رسول الله؟ قال: يخلصه من الرياء والبدعة».

إن الله تبارك وتعالى جعل الإخلاص شرطاً لقبول الأعمال الصالحة، والإخلاص هو العمل بالطاعة لله وحده. والمخلص هو الذي يقوم بأعمال الطاعة من صلاة وصيام وحج وزكاة وصدقة وقراءة للقرآن وغيرها ابتغاءً للثواب من الله وليس لأن يمدحه الناس ويذكروه.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن تكون نيته خالصة لله وحده فقط فلا يصلي ليقول عنه الناس «فلأن يصل لا يقطع الفرائض» والصائم يجب أن يكون صيامه لله تعالى وحده فقط وكذلك الأمر بالنسبة للمزكي والمتصدق وقارئ القرآن ولكل من أراد أن يعمل عمل بر وإحسان».

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل سألته بقوله: «يا رسول الله الرجل يبغى الأجر والذكر ما له؟» قال: لا شيء له، فسأله الرجل مرة ثانية: الرجل يبغى الأجر والذكر ما له؟ قال: لا شيء له، حتى قال ذلك ثلاث مرات ثم قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له وابتغى به وجهه» رواه الحاكم. أي أن من نوى بعمل الطاعة الأجر من الله والذكر من الناس فليس له من الثواب شيء.

قال تعالى: «مثل الذين يبغفون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنتبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم».

فالرهم الذي يدفعه المسلم في سبيل الله ووجوه الخير يضاعفه الله إلى سبعمائة ضعف ويزيد الله لمن يشاء. وهذا الحكم وهو مضاعفة الأجر عام للمصلي والصائم والمزكي والمتصدق وقارئ القرآن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرهم بشرط الإخلاص لله تعالى الذي هو أساس العمل.

أما الرياء فهو العمل بالطاعة طلباً لمحمدة الناس فمن عمل عملاً طاعةً وكانت نيته أن يمدحه الناس وأن يذكره بأفعاله فليس له ثواب على عمله هذا بل وعليه معصية كبيرة ألا وهي معصية الرياء.

وقد سئى الرسول عليه الصلاة والسلام الرياء الشرك الأصغر، شبهه بالشرك الأكبر لعظمه. فالرياء ليس شركاً يخرج فاعله من الإسلام بل هو ذنب من أكبر الذنوب.

إن الإخلاص هو حقيقة الدين ومفتاح دعوة المرسلين قال تعالى: ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه»، رواه مسلم. وقال: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة (يعني ريحها) يوم القيامة»، رواه أبو داود. والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً. قد يقول قائلكم ما الإخلاص الذي يأتي في الكتاب والسنة

واستعمال السلف الصالح رحمهم الله؟ الرد على ذلك بالقول أن تعاريف العلماء للإخلاص تنوعت، ولكنها نصب في معين واحد ألا وهو أن يكون قصد الإنسان في حركاته وسكناته وعباداته الظاهرة والباطنة، أن تكون خالصة لوجه الله تعالى، لا يريد بها شيئاً من حطام الدنيا أو ثناء الناس.

قال الفضل بن زياد سألت أبا عبد الله يعني الإمام أحمد بن حنبل عن النية في العمل، قلت كيف النية؟ قال يعالج نفسه، إذا أراد عملاً لا يريد به الناس.

قال أحد العلماء: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا، أن تكون حركته وسكوته في سره وعلايته لله تعالى لا يماجه نفس ولا هو ولا دنيا.

إن شأن الإخلاص مع العبادات بل مع جميع الأعمال حتى المباحة لعجيب جداً، فبالإخلاص يعطي الله على القليل الكثير، وبالرياء وترك الإخلاص لا يعطي الله على الكثير شيئاً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر الذنوب كما في حديث البطاقة، وحديث البطاقة كما أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله: (يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينتشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، ثم يقال: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلم كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: أفلك عذر أو حسنة فيها؟ فيقول الرجل: لا، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها، أشهد إلا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»، صححه الأذهبي.

قال ابن القيم رحمه الله: -فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العطين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. فيقال: وتامل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر تنقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه. أهد رحمه الله.

ومن هذا أيضاً أيها الأخوة حديث الرجل الذي سقى الكلب، وفي رواية: «بغى بن تميم بنو إسرائيل. فغن أبي هريرة أن رسول الله قال: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فما إذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر» متفق عليه.

وفي رواية البخاري: «فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة». ومن هذا أيضاً ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم -قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»، وفي رواية: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأتحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة».

قال شيخ الإسلام رحمه الله معلقاً على حديث البغي التي سقت الكلب وحديث الرجل الذي أماط الأذى عن الطريق قال رحمه الله: فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها، فالأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإجلال.

وفي المقابل نجد أن أداء الطاعة بدون إخلاص وصدق مع الله، لا قيمة لها ولا ثواب فيها، بل صاحبها معرض للوعيد الشديد، وإن كانت هذه الطاعة من الأعمال العظام كالإنفاق في وجوه الخير، وقتال الكفار، وقيل: العلم الشرعي.

كما جاء في حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به، فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به يعرفه نعمه فعرفها، قال فما عملت؟ قال تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك ما تركت من سيبل تحب أن ينطق فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»، رواه مسلم.

أيها الأخوة في الله: ولذلك فقد كان سلفنا الصالح رحمهم الله أشد الناس خوفاً على أعمالهم من أن يخالفه الرباء أو تشوبها شائبة الشرك. فكانوا رحمهم الله يجاهدون أنفسهم في أعمالهم وأقوالهم، كي تكون خالصة لوجه الله سبحانه وتعالى.

ولذلك لما حدث يزيد بن هارون بحديث عمر: «إنما الأعمال بالنيات، والإمام أحمد جالس، فقال الإمام أحمد ليزيد: يا أبا خالد هذا الخناق.

وكان سفیان الثوري يقول: ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي لأنها تتقلب علي.

وقال يوسف بن أسباط، تخليص النية من فسادهما أشد على العاقلين من طول الاجتهاد.

وقال بعض السلف: من سره أن يكمل له عمله، فليحسن نيته، فإن الله عز وجل ياجر العبد إذا أحسنت نيته حتى بالآفة.



قال سهل بن عبد الله التستري: ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال ابن عبيدة: كان من دعاء مطرف بن عبد الله: اللهم إني استغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك فأخاطب قلبي منه ما قد علمت. وهذا خالد بن معدان كان رحمه الله: إذا عظمت خلقته من الطلاب قام خوف الشهرة، وهذا محمد بن المنكر يقول: كابدت نفسي أربعين سنة حتى استقامت.

وهذا أيوب السخستاني كان يقول الليل كله فإذا جاء الصباح (أي الفجر) رفع صوته كأنه قام الآن.

وكان رحمه الله إذا حدث بحديث النبي يشتد عليه البكاء (هو في خلقته) فكان يشتد العمامة على عينه ويقول: ما أشد الزكام ما أشد الزكام.

وهذا عبد الواحد بن زيد يخبرنا بحدث عجيب حصل لأيوب، وقد عاهده ألا يخبر إلا أن يموت أيوب إلا رياء حينئذ، قال عبد الواحد كنت مع أيوب فعضتاً عضاً شديداً حتى كادوا يهلكون، فقال أيوب: تستر علي؟ فقلت: نعم إلا أن تموت.

قال عبد الواحد فغضر أيوب برجله على حراء فنبع الماء فشربت حتى رويت وحملت معي، وقال أبو حازم: لا يحسن عبد فيما بينه وبين ربه إلا أحسن الله ما بينه وبين العباد، ولا يعور ما بينه وبين الله إلا أعور الله ما بينه وبين العباد، ولمصانعة وجه واحد أبسر من مصانعة الوجود كلها.

وهذا داود بن أبي هند يصوم أربعين سنة لا يعلم به أهله، كان له دكان يأخذ طعامه في الصباح فيتصدق به فإذا جاء الغداء أخذ غداءه فتصدق به فإذا جاء العشاء تعشى مع أهله.

وكان رحمه الله يقوم الليل أكثر من عشرين سنة ولم تعلم به زوجته، سبحان الله انظر كيف ربوا أنفسهم على الإخلاص وحملوها على إخفاء الأعمال الصالحة، فهذا زوجته تضاعفه وينام معها ومع ذلك يقوم عشرين سنة أو أكثر ولم تعلم به، أي إخلاصاً للعلم كهذا، وأي إخلاص كهذا.

فأين بعض المسلمين اليوم الذي يتحدث بجميع أعماله، ولربما لو قام ليلة من الدهر لعلم به الأقارب والجيران والأصدقاء، أو لو تصدق بصدقة أو أهدى هدية، أو تبرع بمال أو عقار أو غير ذلك لعلمت الأمة في شرفها وغيروها، إنني لأعجب من هؤلاء، أهم أكمل إيماناً وأقوى إخلاصاً من هؤلاء السلف بحيث أن السلف يخفون أعمالهم لضعف إيمانهم، وهؤلاء يظهرونها لكمال الإيمان؟ عجبا ثم عجبا، فإني أوصيك أخي المسلم إذا أردت أن يحبك الله وأن تنال رضاه فما عليك إلا بصداقة مخفية لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك فضلاً أن يعلمه الناس. وما عليك إلا بركات إمامها الخشوع وقائدتها الإخلاص تركها في ظلمات الليل بحيث لا يراك إلا الله ولا يعلم بك أحد.

إن تربية النفس على مثل هذه الأعمال لها أثر كبير على الرياء وأكمل لها في الإخلاص. وقد كان محمد بن سيرين رحمه الله يضحك في النهار حتى تدمع عينه، فإذا جاء الليل قطعه بالبكاء والصلاة.

أبو بكر استخدم علمه بالأنساب في نشر الإسلام بين قبائل العرب في الأسواق

قد علمنا أن الصديق كان عالماً بالأنساب وله فيها الباع الطويل، قال السيوطي -رحمه الله- رأيت بخط الحافظ الذهبي -رحمه الله- من كان فرد زمانه في فقه. أبو بكر في النسب، ولذلك استخدم الصديق هذا العلم الفياض وسيلة من وسائل الدعوة: ليعلم كل ذي خبرة كيف يستطيع أن يسخر ذلك في سبيل الله على اختلاف التخصصات، والوأن المعرفة، سواء كان عمله نزيهاً أو تجريبياً، أو كان ذا مهنة مهمة في حياة الناس.

وسوف نرى الصديق يصحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم- عندما عرض نفسه على قبائل العرب ودعاهم إلى الله، كيف وظف هذا العلم لدعوة الله: فقد كان الصديق خطيباً موهباً له القدرة على توصيل المعاني بأحسان الألفاظ، وكان يخطب عن النبي في حضوره وغيبته، فكان النبي إذا خرج في الموسم يدعو (أي أبو بكر) الناس إلى متابعة كلامه تمهيداً وتوطئة لما يبلغ الرسول، موعظة له، لا تقام بين يدي الله ورسوله. وكان عمله في النسب ومعرفة أصول القبائل مساعداً له على التعامل معها، فعن علي بن أبي طالب قال: ما أمر الله -عز وجل- نبية أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه إلى أن قال: ثم دعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار، فنقدم أبو بكر فسلم، فقال: من قوم؟ قالوا: من بني شيبان بن

ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقال: بابي أنت وأمي، ليس وراء هؤلاء عذر من قومه وهؤلاء غير الناس وفيهم مفروق بن عمرو، وهاني بن قبيصة، والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم لسنا وجمالا، وكان له غدبرتان تسقطان على تربيته، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فكم؟ فقال مفروق: إننا لا نزيد على الألف ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فكم، فقال مفروق: إننا لأشد ما تكون غضباً حين تلقى، وأشد ما تكون إلقاء حين تغضب، وإننا لنؤثر الجهاد على الأولاد والسلاح على الفلاح، والنصر من عند الله يدلنا مرة وبديل علينا أخرى. لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيها هو ذا، فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «دعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتصوروني، فإن قريشا قد تطاهرتم على الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد».

فقال مفروق: والإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش، فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فقلنا رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- قوله تعالى: «قُلْ تَعَالَوْا أَنزَلْ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ لِيحْكُمَ فِيكُمْ يَا بِلَالُ الدِّينِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مَن ذَكَرَ رَبُّكُمْ وَأِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا مَنِهَا وَمَن يَفْعَلْ لَبِئْسَ مَا يَفْعَلُ».

فقال مفروق: دعوت والله إلى محارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هاني بن قبيصة فقال: وهذا هاني شيخنا وصاحب ديننا، فقال هاني: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنني أرى أن تزكنا ديننا وأتباعنا يدرك مجلس جسته النما ليس له أول ولا آخر لذلي في الرأي وقلة نظر في العاقبة، إن الزلة مع العجلة وإنما تكره أن نعقد على من وراءنا عقداً، ولكن ترجع وننظر. ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى (وأسلم بعد ذلك): قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هاني بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعنا دينك، وإننا إنما نزلنا بين صيرين أحدهما الإمامة والأخرى السمامة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «وما هذا الصيران؟» فقال له: أما أحدهما فظوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأهل كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذة علينا كسرى إلا أحدث

حدثاً، ولا تؤوي محدثاً، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فاصب ما كان تموا يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك مما يلي العرب فعلمنا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما أسألت في الرد: إن أفصحتم بالصدق، وإن دين الله -عز وجل- لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه. أريبت إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أزيهم وديارهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقديسونه؟»، فقال له النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك.

دروس وعبر

1- ملازمة الصديق لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعلته يفهم الإسلام بشموله، وهياه الله تعالى بأن يصبح أعلم الصحابة بدين الله: فقد تعلم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حقيقة الإسلام، وتربى على دينه في معرفة معانيه، فاستوعب طبيعة الدعوة ومر بمراحلها المتعددة، واستفاد من صحبته لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتشرب المنهج الرباني، فعرف الحق -عز وجل- من خلاله، وطبيعة الحياة، وحقيقة الكون، وسر الوجود، وماذا

حدثاً، ولا تؤوي محدثاً، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك، فاصب ما كان تموا يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك مما يلي العرب فعلمنا، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «ما أسألت في الرد: إن أفصحتم بالصدق، وإن دين الله -عز وجل- لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه. أريبت إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أزيهم وديارهم ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقديسونه؟»، فقال له النعمان بن شريك: اللهم فلك ذاك.

2- في رفقته لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما كان يدعو القبائل للإسلام استفاد الكثير: فقد عرف أن النصرة التي كان يطلبها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية تتناقض مع الدعوة لخصطحيون النصر منها: وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه يعرضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطراً عليها وتهديداً لمصالحها.

3- في رفقته لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما كان يدعو القبائل للإسلام استفاد الكثير: فقد عرف أن النصرة التي كان يطلبها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية تتناقض مع الدعوة لخصطحيون النصر منها: وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه يعرضها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطراً عليها وتهديداً لمصالحها.

4- كان موقف بني شيبان يتسم بالارحية والخلق والرجولة، ويتم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها، وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقرر الله لشيبان في جاهليتهم يرميون أن تحمل أي ابتداء عبء مواجهة الملوك بعد أن اشترق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني صاحب حربهم ويطلبهم المغوار الذي كان من ضمن قادة الفتح في خلافة الصديق، فكان وقومه بعد دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرميون به الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبداً، وبهذا تعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا: حيث جعلهم سادة الأرض مع ما ينتظرون في آخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم.